الاستعداد للحرب

لم يعد الشاب عمرو بن قمية إلى دار الأمير حنا بعد أن فارقه فى تلك الليلة ذاهبًا إلى لقاء أمه تيودورا فى قصرها المشرف على الخليج فى البر الشرقى من قسطنطينية العظمى؛ وكان امرؤ القيس منذ غاب صديقه لا يجد لذة فى طعام ولا فى شراب ولا فى سمر، وقد أحس كآبة سوداء تشمل قلبه، وتتغلغل فى أعماقه، وجعل يسائل نفسه عما صار إليه أمر ذلك الصديق العزيز، أيكون قد حل به مكروه مما كانت العاصمة الكبرى تنطوى عليه من الجرائم السوداء؟ لقد سمع حنا وهو يتحدث مع عمرو ويشير إليه فى خبث إلى أن الملكة لن تحب أن تراه فى وضح النهار، وسمع سخريته إذ قال له: «أتظن أنها كانت تستقبلك بين الجموع وتقول هذا ولدى» تذكر تلك الأقوال، وزادت مخاوفة على صاحبه لأنه استطاع فى أثناء إقامته فى جوار الأمير حنا أن يستشف ما وراء مظهره البراق الخلاب، استطاع أن ينفذ إلى حقيقته من خلال أقواله وحركاته فى صحوه وفى سكره، وعرف أنه رجل مخيف، لا يتردد فى شىء، ولا يعجز عن الإقدام على شىء.

فهل كان يبعد على مثله أن يتخذ من صديقه المسكين وسيلة يصل بها إلى مطامعه؟ ولقد سمع الشىء الكثير عن تيودورا. إنها كانت

تدبر خطط القتل والإيقاع والأسر، لا تنام عن عداوة، ولا تنكص عن اقتحام المهالك فى سبيل ما عقدت عليه عزمها من كيد أو انتقام؛ ألا تكون هذه المرأة القاسية قد ضحت بصديقة المسكين فى سبيل إخراس الألسنة عنها؟ لقد كان صديقه ولدها حقًّا؛ ولكن لكم من أم قد قتلت ولدها إذا دفعها إلى ذلك حرصها على إخفاء سر لها لا تحب أن يظهر. إنه طالما نصح صديقه بالتريث والاحتراس. بل لقد حدثته نفسه مرة أن يفر معه ويخرجا من تلك العاصمة المخيفة التى لا تحميهما فيها قبيلة، ولا يجدان فيها ما اعتاداه من حرمة الجوار، ولكن صاحبه كان لا يعبأ بشىء إلا أن يبلغ غرضه الذى أتى إلى مدينة قيصر من أجله، كأن الأقدار كانت تدفعه دفعًا إلى مصير محتوم؛ وها هو ذا قد مضى إلى قصر أمه الملكة فى صحبة الأمير حنا، وعاد حنا وحده مرحًا مختالاً كعادته؛ بل لقد كان أكثر مرحًا واختيالاً فى تلك الليلة التى عاد فيها وحده بعد زيارته لقصر الملكة، وكان مساءلة امرىء القيس له عن صديقه إلا بضحكة ساخرة قائلا: «لقد وجد أمه فوطن نفسك على المقام وحدك يا صديقى».

ولكن امرأ القيس لم يقنع، وزادت شكوكه يومًا بعد يوم، وعظمت وحشته، وداخله فزع عجيب من المقام فى قصر الأمير، إلا أنه لم يعرف لنفسه منصرفًا عنه، فأقبل على الشراب والمجون واللهو، ليغرق فيها مخاوفه وهمومه، فكان لا يصبح إلا على صبوح

مـن الخمر، ثم يقضى يومه مخمورًا، حتى إذا أقبل المسـاء ذهب يلتمس سـهرة صاخبة ينسـى فى خمرها وثورتها العنيفة ما كان يضطرب فى قلبه من الوساوس والآلام.

وكان الأمير حنا فى شـغل شـاغل فـى أثناء هـذه المدة، فقد تغيـرت حاله منذ تلك الليلة التى ذهـب فيها إلى قصر الملكة مع عمرو بن قمية، وأصبح اسـمه يتردد فى أركان القصر الإمبراطورى وفـى مجالس أعيـان الدولة، ثم لم يلبث اسـمه أن انتقل إلى أفواه الشعب، واتجهت إليه الأنظار، وهتفت باسمه الجماهير، وأشارت إليه بنان الجموع المحتشـدة أنى سار فى أنحاء العاصمة، إذ أصبح موضع ثقة الإمبراطور والملكة، والمنتظر لقيادة جيوش الدولة فى نضالها العظيم الذى أوشـكت أن تبدأه مع دولة كسـرى أنوشروان. ولـم يكن عجيبًـا فى قسـطنطينية العظمى أن يصبح حنـا المنبوذ بالأمـس صاحب الجـاه والحظوة اليوم،أو أن ينـزوى بازاريوس، القائـد المظفر الـذى ارتجت له العاصمة منذ أيـام، ويصبح خامل الذكر عاطلا من جاهه ومجده، قانعًا بظل خافت من أبهته الغابرة، فهكذا اعتاد الناس صروف المقادير فى عاصمة قيصر.

ولـم تخل هذه الحياة الرخوة المخمورة من أن تحدث أثرها فى امرئ القيس، فقد امتلأ جسـمه شحمًا، وتبدل لون وجهه فاكتسى حمرة كأنها لمعة ثائرة من لهيب يتقد فى جوفه، واسترخى جفناه، وانتفخت عيناه. وتثاقلت حركته، وتباطأت أنفاسـه، وتكاسـلت

ألفاظـه، وزاد على ذلك كله مـرض أصابه بقرحة جعل يلتمس لها الأدهان والأشـربة، ولكنه لم يعبأ بها. فإنها لم تكن سـوى قرحة هينة وإن أبطأت عليه فى البرء: لم تكن تؤلمه فى نومه، ولا تعوقه عـن لهـوه، ولا تبدو للنظر فـى ظاهره، فلم يكن يأبـه لها إلا إذا أفـاق فى صباحه قبل أن يعود إلى شـرابه، فيخلـع ثيابه ويدهن موضعها، ثم يعود إلى شأنه، فلا يذكرها إلا إذا تجرد فى الصباح الذى بعده قبل أن يعود إلى نسيانها فى خمر صبوحه.

بسـط الصيف رواقه، واختلجت طرق القسطنطينية بالاستعداد للحملة العظيمة التى عزم قيصر على إنفاذها إلى فارس لكى يحطم بها ذلك العدو العنيد، كسرى أنوشروان.

لقد كانت الحرب بين الروم والفرس لا تشـبه الحروب؛ لم تكن حرب شـعب ضاقت به رقعته فزحف على الأرض التى تليه يريد أن يسـتقر وينفسـح فيها، بل كانت حربًا تثيرها الكبرياء وشهوة المجد، والطموح إلى القوة والسلطان؛ كانت تشبه مباريات الفرسان فى حلبة العرض، وما كانت الجموع البشرية التى تساق للموت فى تلك المباريات إلا مطايا الملوك والسـادة، يظهرون بها سـطوتهم ومبلغ سلطانهم.

وتم الاستعداد، واجتمع الجيش العرمرم ألوفًا مؤلفة من أقاصى الأرض وأدانيهـا، يضـم بين جناحيه شـعوب الشـرق والغرب، وأعدت عدة الحرب من مؤونة وسلاح ودواب وآلات وأموال وزينة،

واجتمع ذلك كله عند ساحل البحر فى آسيا الصغرى ينتظر أمر قيصر بالسير نحو الشرق، تحت لواء القائد الباسل الذى اختاره لهذه الحرب، حنا القبادوقى.

وأراد الأمير حنا أن يحتفل قبل السير احتفالاً عظيمًا يذكره به أهل العاصمة فى مدة غيبته عنهم، فأعد لذلك مسابقة عظيمة فى ميدان السباق، فجهز عشرات من العربات للمباراة، واستعد أهل المدينة من الحزبين الأزرق والأخضر للرهان والنضال كعادتهم.

وأعد الأمير فوق هذا وليمة فى قصره دعا إليها علية القوم من قواد ووجوه، وأقبل الليل والقصر يتلألأ بأنواره الساطعة ويموج بألوف من الحراس.

صحا امرؤ القيس من خمره فى عصر يوم الاحتفال، فوجد رسول الأمير فى انتظاره يدعوه إلى لقائه؛ ولم يخل من الشعور بالدهشة عندما سمع تلك الدعوة، فقد مضى عليه حين طويل لا يكاد يلقاه ولا يكاد يحس بوجوده. فقام امرؤ القيس فاترًا يتمطى ويتثاءب وهو يهتز فى دوار وغشية، فاغتسل واستعد باللبس والزينة، وعرج على قارورة الخمر فصب منها، فى كأس كبيرة، وجلس حينًا إليها يتمززها حتى انتهى منها فانتشى بعض النشوة، ودب فيه النشاط، وقام فذهب إلى إيوان الأمير فوجده يتحدث مع بعض زائريه من قواد الجيش، فلما رآه هش إليه وخاطبه بالعربية قائلاً:

«لقد اشتقت إلى رؤيتك يا أبا وهب».

فدق قلب امرئ القيس، وأجاب فى شىء من الارتباك: «لقد عملت ما أنت فيه من شغل. دام لك المجد».

فأظهر الأمير حنا الارتياح إلى هذه التحية المهذبة، وأشار إليه أن يجلس كأنه يعتذر عن الانصراف عنه ريثما يتم حديثه مع أصحابه. ثم عاد إلى شأنه، وأقبل على القواد فى مناقشة ومحاورة، وكان يبدو عليه أنه يريد أن يفرغ منهم مسرعًا حتى يقبل على ضيفه العربى. ولما أتم الحديث معهم قاموا مستأذنين، ولم ينسوا أن يلقوا تحية إلى امرئ القيس فيها كثير من التقدير، كأنهم يريدون بذلك أن يظهروا الإكرام للرجل الذى يظهر له من الأمير حنا ما ظهر من المودة والبشر، ولما صار حنا وحده مع امرئ القيس أقبل عليه باسمًا وقال له: «أظن المقام قد تطاول عليك فى هذا الخمول. إنك بغير شك قد ظننت بى الظنون لطول صمتى عنك».

فنظر امرؤ القيس إليه فى حيرة، ولم يدر كيف يرد جواب قوله. ففى الحق أنه كاد ينسى ما جاء إلى القسطنطينية من أجله، وكاد يألف حياته الجديدة ويستقر عليها، بل إنه قد كاد ينسى أنه إنما يعيش فى بيت رجل أجنبى عنه لا حق له عليه فى قرابة ولا فى جوار. ولما رأى الأمير حنا حيرة صاحبه حملها على أنه لم يفهم قصده من قوله، فعاد إلى الكلام قائلا: «ولكنى كنت فى هذه الشهور الماضية لا أجد فراغًا للحديث معك. وكنت أوثر أن أكتم الأمر عنك حتى يتم، وها قد تم أو هو قريب من التمام. وستتحرك

الجيوش قريبًا إلى فارس، وستكون أنت أميرًا فى هذا الجيش، فقد جعلت تحت إمرتك خمسمائة من صفوة الروم، تذهب بهم إلى الحيرة لتنال ثأرك من عدوك».

وقد بلغت الحماسة من حنا عند ذلك مبلغًا لم يستطع معه أن يبقى هادئًا فى الحديث، فقال وهو يفرك يديه، وجعل يذرع البهو الفسيح ذاهبًا جائبًا.

وكان امرؤ القيس ينظر إليه فى دهشة عظيمة، وكأنه يسمع نبأ جديدًا لم يسبق له عهد بسبب منه، ولذلك لم يقم ولم يتحرك ولم يتكلم، بل بقى فى مكانه يتبع حركات الرجل فى وجل وصمت.

ولم يلتفت حنا فى حماسته إلى مظهر امرئ القيس، واستمر يشرح ويفسر ويوضح كأنه يبسط خطة إلى شريك يجب أن يفضى إليه بكل ما عنده من أسرارها؛ وأخيرًا قال له ناظرًا إلى وجهه فى ارتياح: «والآن أترى أننى قد عوضت كل ما سلف من إغفالى وانصرافى؟».

فتحرك امرؤ القيس لأول مرة باسمًا، وكأنه قد أدرك عند ذلك شيئًا من معنى الموقف، فقال: «إننى يا سيدى لا أقدر أن أوفيك حقك من الشكر. ولقد كنت فى كل حالاتك معى كريمًا نبيلا».

فتبسم حنا مرتاحًا وصمت لحظة، ثم قال مشيرًا بيديه: «سنهبط على أرض العدو من منافذ الأرض كلها، فلا ندع له أمنًا فى ناحية. سنهبط عليه من الشمال ومن الجنوب ومن الوسط. سنطلع عليه

من الجبل ومن الريف ومن الصحراء سنجتاح بلاده كلها فى وقت واحد كما يجتاح السيل أنحاء السهل».

وأشار بيديه عند ذلك فى حركة سريعة تدل على البت والحسم.

وكان امرؤ القيس فى أثناء هذا الحديث قد استطاع أن يدرك حقيقة الأمر تدريجًا، فما انتهى الرجل منه حتى كان قد تذكر كل الحقائق وتمثلها، وأحس ما فيها من خطورة وعاودته ذكريات الماضى سراعًا، وملأت قلبه بشىء يشبه ما كان يملؤه من الحفيظة والأمل والجد، وتصور أنه عائد عما قليل إلى أرض قومه عزيزًا فى كتيبة قوية من فرسان مختارين، وأنه سيذهب إلى عدوه المنذر فى الحيرة فيسطو به، وهو لا يستطيع أن يجد ناصرًا من سيده كسرى الذى تكون الجيوش محدقة به من كل جانب. تصور ذلك كله، وامتلأ قلبه سرورًا وأملًا، وتنفس نفسًا عميقًا وهو يقول لصاحبه: «سيكون قتالًا يثلج الصدر».

وصمت قليلًا ثم قال: «ألا ليت صاحبى معى».

فقال حنا مبادرًا: «لن تكون وحدك بغير شك يا أبا الحارث».

فانتفض امرؤ القيس قائلا: «أوَيكون معى؟»

فنظر إليه حنا، ولكنه لم يتكلم.

فقال امرؤ القيس مستمرًا فى حديثه بحماسة: «أيكون عمرو معى؟ أما آن له أن يعود؟».

وما كاد حنا يسمع اسم عمرو حتى وجم واعتراه اضطراب شديد كأنما أخذ على غرة فى أمر لم يكن يتوقعه. ولكنه تمالك نفسه بجهد عظيم بعد فترة صمت غير قصيرة، وحاول أن يظهر قلة الاكتراث فأجاب فى هدوء متكلف: «سيكون معك أعوان صدق من شجعان العرب. سيكون معك الحارث الغسانى وقومه، والطماح الأسدى خرِّيت الصحراء».

فوقف امرؤ القيس على قدميه فى كثير من الانزعاج وأجاب بغير تفكير: «الحارث الغسانى؟ والطماح الأسدى؟».

فأجاب حنا باسمًا وقد ملك زمام نفسه: «نعم وأظنك تحمد صحبتهما».

فقال امرؤ القيس فى شىء من الجفاء: «وأين أكون منهما، أو أين يكونان منى؟».

ففتح حنا عينيه مظهرًا الدهشة وقال: «لست أفهم ماذا تقصد».

فقال امرؤ القيس مع بعض العنف: «أقصد أن أعرف موضعى من هؤلاء؛ لقد كنت أحارب المنذر، أو أسطو بعدوى من بنى أسد، وأنا سيد من معى. أفأكون سيد من معى، إذا سرت اليوم إلى المنذر».

فضحك حنا ضحكًا عاليًا حتى استند بيده على ظهر أريكته وهو واقف، ثم نظر إلى امرئ القيس وقال: «لم أفكر فى ذلك الأمر أيها الأمير. إنك تفكر فى أمر الرياسة، ولكنا نفكر فى خطة شاملة لا محل فيها للأفراد، فالكل يتساندون فى سبيل غرض واحد».

وكان امـرؤ القيس منـذ ضحك حنا قد تبدل مظهره، فاكتسـى حمرة شديدة، وظهر الغضب فى عينيه، وتحركت أنفاسه سراعًا، وكاد ينفجر فى غضبة ثائرة كعادته، ولكنه حكم نفسـه ولم يسرع إلى الجواب فقد علم أنه فى مكان لا تجديه فيه الغضبة. لقد علمته الإقامة فـى العاصمة الرومية أن يكون أملك لنفسـه، وأحرص فى قوله؛ فسـاد الصمت حينًا بعد أن انتهى حنا من كلامه، ثم أجاب امـرؤ القيس فى إيجاز وهو يتكلف الهدوء: «هذا تدبير لم يسـبق إلى خاطرى».

ثم قال فى فتور بعد صمت يسير: «ولكنه حسن».

وكان حنا فى أثناء هذه اللحظات الأخيرة قد عاد إلى مجلسـه، وجعـل يعبـث فـى قضيب مـن الآبنـوس المطعم بالفضـة، وهو يختلـس النظرات بعينيه الزرقاوين من امرئ القيس، كأنه يحاول أن يستشف ما تحت مظهره المتكلف.

ومضـت لحظة صمت أخـرى. ثم جاء امرؤ القيـس فجلس إلى جوار الأمير، وخاطبه فى لهجة التوسل بصوت هادئ كأنه يهمس سـرًا، فقال: «ولكن أما يذهب عمرو معى؟ أمـا يعود عمرو معى؟ أما يتاح لى أن أراه قبل سفرى؟».

وكان حنا منذ سـمع اسـم عمرو قد عاد إلى وجومه وعراه شىء مـن الاضطراب مرة أخرى، ولكنه تمالك نفسـه سـريعًا وقال فى صوت ضئيل فيه رنة من القسوة: «دع عمرًا يا أبا الحارث. إن شأنه لا يعنينا اليوم. فهو مع أمه العظيمة، وهى أولى بتدبير شأنه».

فقال امرؤ القيس ساهمًا كأنه يتكلم فى حلم: «وهل أعود بغيره»؟.

فهز حنا رأسه فى هدوء وقال وهو يتعمد الإفلات من نظرات امرئ القيس: «لعله يلحق بك بعد حين. بل إن أكبر ظنى أنه سيلحق بك. ولكنه سيسير سير أبناء الملوك فى أتباع ممن ينبغى له أن يستصحب. فما كان مثله ليتخلف عن هذه الحرب ليجد فيها مجالًا للمجد والسيادة. ولكن هذا أمر معلق على غير إرادتنا، وليس لنا أن نتحدث فيه».

ثم أشار بيديه إشارة سريعة كأنه يقول إن هذا آخر القول فى أمر لا شأن لنا فيه. وعاد إلى الصمت وجلس متجهمًا، فاضطر امرؤ القيس إلى أن ينطوى على نفسه، ويكتفى بمناجاة أشجانه.

وبعد قليل بدأ توافد الضيوف على القصر، وانتهز الأمير حنا تلك الفرصة فخف إلى استقبالهم كأنه قد وجد فيهم مخلصًا من موقفه؛ وجلس امرؤ القيس وحده فى ناحية من الإيوان يفكر، ولكنه لم يكن يشغل قلبه تفكير فى ثأر أو حرب أو ملك، بل كان كل قلبه ممتلئًا بصورة واحدة ومعنى واحد، صورة صديقه عمرو وغيبته الطويلة، وذلك السر العجيب الذى يحيط باختفائه، ثم ذلك الرجل الرهيب الذى يحدثه عنه بهذا الجمود القاسى. وثارت فى نفسه شكوك ومخاوف لم يستطع الشراب الكثير الذى شربه تلك الليلة أن يذهبها عنه.

* * *